قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

أضواء على حواضر تركستان في آسيا الوسطى سنة 1908م من خلال مشاهدات الرحالة والداعية الإسلامي السيبيري الشيخ عبد الرشيد إبراهيم

Lights on the cities of Turkestan in Central Asia in 1908 through the sightings of the Siberian Muslim traveler and preacher Sheikh Abdul Rashid Ibrahim

عادل بن محمد جاهل[1]*
جامعة ابن زهر، أكادير- المغرب

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال: 2019/01/11
المراجعة: 2019/06/04
القبول: 2019/07/09

الكلمات المفتاحية:
حواضر العالم الإسلامي،
مطلع القرن العشرين الميلادي،
الشيخ عبد الرشيد إبراهيم،
تركستان،
آسيا الوسطى.

ملخص

تروم هذه الإسهامة العلمية، تسليط الضوء على جانب من أوضاع حواضر العالم الإسلامي، وتحديدا حواضر تركستان، الواقعة في قلب آسيا الوسطى، ذات الغالبية المسلمة، وبالضبط في مطلع القرن العشرين الميلادي، من خلال شهادة الرحالة والداعية الإسلامي السيبيري، ذي الأصول التتارية، الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، وتشتمل هذه الورقة، على مجموعة من المباحث، حاولنا من خلالها، التعريف بهذا الكتاب الموسوم بـ (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين)، وبصاحبه، وظروف تدوينه، ناهيك عن الصور والانطباعات، التي خلّفها الرحالة والداعية السالف الذكر، حول المجال المذكور آنفا.

Key words:

Cities of the Islamic world,

Early 20th century,

Sheikh Abdul Rashid Ibrahim,

Turkistan,

Central Asia.

Abstract

This paper highlights some of the situation in the Muslim world, specifically the cities of Turkestan, located in Central Asia, the Muslim majority, and specifically in the early twentieth century, through the testimony of the Siberian Muslim traveler and preacher, Sheikh Abdul Rashid Ibrahim, this paper includes, On a series of chapters, we tried to introduce this book, its author, and the circumstances of its writing, not to mention the images and impressions, left by the aforementioned traveler and preacher about the aforementioned area.

* Corresponding author at: Ibn Zohr University, Agadir, MOROCCO
Email : adil.jahil@edu.uiz.ac.ma

المقدمة

يُعتبر كتاب (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين: مسلمو تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا)، لصاحبه الرحالة والداعية الإسلامي السيبيري، ذي الأصول التتارية، الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، المعروف بالقاضي الرشيد، أهم وأبرز وثيقة تاريخية واثنوغرافية، أرخت لأوضاع بلاد تركستان، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومُثلهم الأخلاقية، ناهيك عن وضعيتهم السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، وتحديدا في مطلع القرن العشرين الميلادي، وبالضبط في أثناء فترة الاحتلال الروسي، وهكذا قدّم الشيخ المذكور في كتابه الآنف الذكر، بيانات ومعطيات وتفاصيل، دقيقة ومهمة ونادرة، حول هذه الأراضي الواقعة في وسط آسيا، ذات الغالبية المسلمة، والتي أطلق عليها العرب الفاتحون الأوائل اسم (بلاد ما وراء النهر)، وطيلة قرون عديدة، ظلت هذه الأراضي، منسية ومجهولة، يخترقها صمت علمي كبير، حيث لا دراسات تسلط عليها الأضواء، ولا بحوث تشفي الغليل، وربما كان السبب المباشر والوحيد وراء هذا، ناتج عن ندرة المظان والشواهد التاريخية المكتوبة، وما يفسر هذا أكثر، كون مجال موضوع الدراسة، عاشت فيه قبائل، فرضت عليها الطبيعة الاغتراب وشد الرحال، وأجبرها الكلأ على الانتقال[1]، ونتج عن كل هذا، بكيفية أو بأخرى، هيمنة الثقافة الشفهية على ثقافة التدوين.

وما يزكي هذا التصور الأخير، ما ذكره المستشرق الروسي فاسيلي فلاديميروفيتش بارتولد، في كتابه الموسوم بـ (تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي)، حيث يقول في هذا الصدد: "**وأغلب الظن أنه لم تظهر بآسيا الوسطى (...) أية آثار تاريخية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ بل وجدت فقط مأثورات شعبية تناقلها الخلف عن السلف ولم تلبث أن فقدت قيمتها (...) ثم طوتها يد النسيان**"[2]، بيد أن الباحث محمود شاكر يُبين أن السبب الرئيسي، في عدم وجود كتابات وشواهد تاريخية، بالمعنى والكلمة، في هذه البلدان، يرجع إلى مخلفات الاحتلال الروسي، الذي دمر كل معالم الثقافة والفكر والحضارة، بهذه المناطق المسلمة، الشاسعة الأطراف، في هذا الجانب، يقول الباحث محمود شاكر: "**احتلت روسيا هذه المناطق وابتلعتها منذ أكثر من قرن (...) فلم يعد يذكر لتلك المراكز التي حملت شعلة الحضارة فترة من الزمن، واقترنت بها، فزالت معالمها، وامحت حضارتها، (...) ولم يعد منها في الذاكرة إلا معلومات بسيطة من خلال مقتطفات من الأدب أو شذرات من التاريخ أو من أسماء علمائها الذين لمعوا فأضاءوا الكتب بعلمهم وأناروا الطريق لمن بعدهم**"[3].

وكيفما كان الحال، وأمام قلّة الكتابات والأبحاث التاريخية، التي تناولت جوانب من تاريخ بلدان ما وراء النهر، يعد كتاب الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أبرز الشواهد التاريخية، التي تناولت مجمل تاريخ تلك الأقطار الآسيوية المسلمة، في أوائل القرن العشرين الميلادي، والتي كانت تعتبر بحق، إحدى جنان الدنيا الأربع، حيث تنافست حواضرها، مثل: سمرقند، وبخارى، على قيادة آسيا الوسطى، ولفترات تاريخية طويلة، فامتازت الأولى بالزعامة السياسية، وحظيت الثانية بالمكانة الدينية، وكانت لها الشهرة في ذلك، كيف لا؟ وهي البلاد التي أنجبت إمام الحديث الشريف، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب (الجامع الصحيح)، الذي يعد أوثق الكتب وأصحها بعد كتاب الله عزو وجل، إضافة إلى علماء أجلاء آخرون، أمثال: أبو عيسى محمد الترمذي، أحدُ أئمة الحديث في زمانه، صاحب (الجامع)، و(الشمائل)، و(السنن)، والإمام الحافظ مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، صاحب كتاب (الصحيح)، والإمام أحمد بن شعيب النسائي، أحد أئمة الحديث النبوي الشريف، صاحب (السنن الصغرى والكبرى)، المعروف بـ (سنن النسائي)، والإمام المحدث أبو بكر البيهقي، صاحب (السنن) و(المناقب)، إضافة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا، الفيلسوف الطبيب، ناهيك عن علماء الظاهر والباطن، أمثال: أبو حامد الغزالي، أحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والامام جار الله الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير، والحديث، والنحو، وعلم البيان، ومحمد بن جرير الطبري، المؤرخ المفسر، ومحمد بن موسى الخوارزمي، العالم، والرياضي، والفلكي، إضافة إلى علماء كثيرين لا يعدون، وهكذا اشتهرت بلاد ما وراء النهر، بالعلم والعلماء، وباسم بخارى، حيث غطت شهرتها على كلمة تركستان، التي تفاخر أبناؤها بالانتساب إلى بخارى، فهم البخاريين، وهم التركستانيين، وعرفت تركستان الغربية ببلاد بخارى، كما عرفت تركستان الشرقية باسم بخارى الصغرى، وهكذا أصبحت معروفة أيضا في آسيا وأوروبا[4].

إذن، فمن هو الشيخ عبد الرشيد إبراهيم؟ وما هي أبرز إنتاجاته الفكرية؟ وما هي الصور التي رسمها عن حواضر تركستان؟ وإلى أي حد تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي للمجال المذكور، في مطلع القرن العشرين الميلادي؟

1. التعريف بالداعية الإسلامي الشيخ عبد الرشيد إبراهيم وكتابه

1.1. من هو الداعية الشيخ عبد الرشيد إبراهيم؟

ولد الداعية والقاضي السيبيري، ذي الأصول التركية، الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، في 23 أبريل 1857م، ببلدة تارا، التابعة لولاية توبولسك، الواقعة في سيبيريا، والخاضعة للحكم الروسي القيصري، منذ القرن السادس عشر الميلادي، أبوه يدعى عمر أفندي، أحد أبناء إبراهيم آخون، الذي ينحدر من إحدى العائلات البخارية الأوزبكية العريقة، التي استوطنت بلدة تارا، منذ فترة زمنية قديمة، وقد استخدم الشيخ عبد الرشيد اسم جده إبراهيم كاسم للعائلة. تلقى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم تعليما دينيا علميا منظما، طبقا لأصول التعليم السائدة في زمانه، فتعلم في إحدى المدارس المشهورة في ذلك الوقت في قيشقار، كما درس في مدينة كازان عاصمة

تتارستان، ولم يكد يصل إلى سن العشرين، حتى انتهى من التعليم الأساسي في بلاده. وفي فترة من الفترات ألقى دروسا في الدين، عندما كان يطوف بمنطقة القرمز، وأخذ يرشد الناس ويعظهم، ثم خرج قاصدا مراكز العلم والمعرفة في البلاد الإسلامي؛ بقصد زيادة علمه وخبرته وتنمية تحصيله، فذهب إلى مقر الخلافة العثمانية إستانبول لأول مرة سنة 1871م، وهو في الحادية والعشرين من العمر، وأصبح من دعاة الجامعة الإسلامية، وأوقف حياته على هذا المبدأ، والجامعة الإسلامية كانت نقطة حركته ومرتكزها في سياحته الطويلة، للدعاية للإسلام وللجامعة الإسلامية، في كل من: تركستان، وبلاد المغول، والصين، واليابان، ومنشوريا، وبلاد سيبيريا، وفي كوريا، وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند، والحجاز. وكانت الجامعة الإسلامية، هي لب لقاءاته بالناس في كل هذه الأقطار، وبعد أن قضى في إستانبول مدة قصيرة، توجه في نفس العام إلى مكة والمدينة المنورة. وفي نفس هذه الأرض المباركة، حصّل العلم الذي يشكل الأساس في تحصيله الديني[5].

غادر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم البلاد المقدسة، وقد استوطن في ذهنه وفي حافظته العلم والعرفان، الذي ملأ أحاسيسه بالشهامة والجسارة. وعاد إلى الأسِتانة أي مدينة إستانبول مرة أخرى سنة 1881م، وفي ذهنه هذه المرة عدم كفاية العلم والفضل الذي حصله. فقد كانت لديه طموحات جارفة للقيام بتجربة، من أجل العمل المثمر أكثر بين كل الأتراك المسلمين، خدمة للأمة التي ترزح تحت ظلم الحكم الروسي[6]. وهكذا بذل جهدا كبيرا في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، أو الجامعة الإسلامية، في ظل دولة الخلافة العثمانية[7]. وبعد مقامه مدة في هذه المدينة العثمانية، عاد إلى موطنه روسيا سنة 1885م، حيث اشتغل مدرسا هناك بمدينته؛ ولأنه كان يتقن اللغات: التركية، والعربية، والفارسية، بالإضافة إلى اللغة الروسية، وكان ضالعا في العلوم الشرعية، فقد تبوأ مكانة متميزة في المشهد الثقافي والسياسي في روسيا، حيث شغل سنة 1892م منصب رئيس المجلس الروسي لمسلمي روسيا، وهو المنصب الذي استقال منه بعد ثمانية شهور فقط[8]؛ لأسباب عديدة ومتمايزة، كما أسهم الشيخ عبد الرشيد إبراهيم بدور فعال في توعية مسلمي تركستان بالخطر الروسي وأبعاده، وقام بتأسيس المساجد، وافتتاح المدارس الإسلامية، في بعض الأماكن التي ارتحل إليها وزارها[9].

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، كان أيضا مناضلا سياسيا انخرط في النضال، من أجل تمتيع المسلمين الروس بحقوقهم السياسية والاجتماعية، وإليه يعود الفضل في كتابة أول بيان سياسي لمسلمي روسيا، يستنكر فيه القمع والاضطهاد، ويفضح نشاط البعثات التبشيرية الأرثدوكسية، ويدعو فيه كافة المسلمين التتار إلى الاتحاد، من أجل تحقيق نهضة ثقافية واجتماعية؛ وقد كان النشاط السياسي للشيخ عبد الرشيد إبراهيم سببا للزج به في إحدى سجون مدينة أوديسا الأوكرانية سنة 1904م، الواقعة على ساحل البحر الأسود، وحينما لم يصدر في حقه العفو كما الشأن بالنسبة لبعض السجناء السياسيين، بمناسبة ميلاد الأمير أليكسي رومانوف، ابن الامبراطور نيكولا الثاني[10] قاسى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم من خلالها صنوفا من الازدراء، مُبديا جلدا كبيرا في الوقوف أمامها، في هذا الجانب يقول: "**ألزمت نفسي فكريا بخدمة وطني وديني وعانى قلبي من كل البلايا لمدة تتراوح بين 25 و30 عاما. وتحملت كل مشقة ثلاثون عاما وأنا أقول وسوف أظل أقول ذلك. فديني هو الإسلام، وأمتي أيضا هي الإسلام. ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين. وبسبب فطرتي التي فطرت عليها وطبيعتي التي نشأت عليها، سلكت مسلك خدمة هذه الحياة الإسلامية التي هي حياة أمتي. وقاسى القلب أنواعا من الآلام في سبيل ذلك. وقدمت أهلي وعيالي فداء**"[11]. ويُضيف قائلا: "**إلا أنني لم أيأس ولله الحمد ثم لله الحمد. بل إنني ثبت على مبدئي. وكلما زاد شوقي واشتياقي تركت له العنان. وفي كل الحالات عملت بالآيات القرآنية البينات وتفاءلت بها**"[12].

وإلى جانب ما سبق ذكره، كان الشيخ عبد الرشيد إبراهيم كثير الأسفار والترحال، حيث اختار لنفسه حياة كلها تنقل واستكشاف؛ للتأمل في مجريات العالم الإسلامي، وأحواله المتردية، وتقديم الحلول لمشاكلهم وعللهم المختلفة والمتعددة، إضافة إلى رغبته الكبيرة، في نشر مبادئ وتعاليم الإسلام الحنيف، في مختلف الأقطار والبلدان الآسيوية غير الإسلامية، ثم أيضا رغبته الجموح في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، في ظل الخلافة العثمانية، ولتحقيق كل هذه المرامي المتمايزة، ركب المخاطر، وضحى براحته، واغترب عن الأهل والأحبة، لا يبغي من وراء كل ذلك، سوى وجه ذي الجلال والإكرام. في هذا الإطار، يقول: "**وتمشيا مع هذا المسلك فضلت أن أقوم بسياحة طويلة هذه المرة امتثالا للأمر القرآني الجليل سِيرُوا فِي الأَرْض. ولم يكن أمامي قائد أو ورائي سائق. إلا أنني حزمت أمري، وأخذت بيدي عصا التوكل. وجريا وراء الآمال المقدسة إعلاء لكلمة الله بنية خالصة وترويجا لفكرة الاعتصام بحبل الله وتقويتها. تركت أهلي وعيالي وأطفالي الأعزاء فلذة أكبادي وديعة لله. وخرجت إلى الطريق وأنا أقول: يا الله (...) كثيرا ما غادرت وطني وسافرت إلى ديار الغربة. إلا أنه مهما كان السبب، فإن الفراق هذه المرة جعلني أستغرق في التفكير، خاصة وأنني لم أعد شابا، ومن الطبيعي أن تلح على خاطري مسألة الحياة والموت. إنني مسافر هذه المرة إلى ممالك المجوس وإلى ديار الكفر. واحتمال مصادفة مسلم واحد بعيد المنال. وأنا لا أعرف لغة البلاد التي أقصدها. ونقودي انتهت، ولا أعرف أحدا. هذا كله يدعوني إلى التفكير العميق وإلى مراقبة الأمور. وقد ورد بذاكرتي أنه إذا حل أجلي المحتوم بهذه البلاد، فكم سيؤثر هذا على عائلتي وأحبائي الذين تركتهم وراء ظهري**"[13].

وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم قد أسهم إسهاما فعالا، في نشر الإسلام في ربوع أرخبيل اليابان، بلاد الشمس المشرقة، فقد كان له تأثير كبير على المسؤولين اليابانيين، كما تمكن من إقناع اليابانيين بأن فكرة الجامعة الإسلامية، تتوافق تماما مع ما تدعو إليه اليابان، من فكرة مشابهة تطلق عليها "آسيا العظمى"، وذلك في مواجهة بلدان

أوروبا الغربية الامبريالية، ثم أخذ يقنع الساسة اليابانيين بقبول الإسلام كعقيدة ودين[14]. وفي أكتوبر 1933م عاد الشيخ عبد الرشيد إبراهيم مرة أخرى إلى اليابان، واستقبل هناك استقبالا رسميا في نونبر من نفس السنة، وحسب المقالات الصحفية التي أصدرها الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، فإنه كان يسعى إلى دعم العلاقات بين العالم الإسلامي واليابان من جهة، وتصحيح سوء فهم الإسلام في الأوساط اليابانية، التي تستعمل الوساطة الأوروبية في معرفة الإسلام، وسعيا لتحقيق هذا الهدف الأخير، قام بوضع أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اليابانية[15]. إلى جانب هذا أيضا، شارك الشيخ عبد الرشيد إبراهيم في تأسيس مسجد طوكيو سنة 1937م، والذي أصبح إماما فيه يؤم الناس، ويلقي الدروس والمحاضرات، ويدعو الناس إلى دين الإسلام[16]. لقد كانت العلاقة بين الشيخ عبد الرشيد إبراهيم واليابانيين: سياسيين، وعسكريين، وصحفيين، ومثقفين، عميقة جدا، لدرجة أنهم طلبوا منه أن يصطحب معه إلى الحج، أحد اليابانيين المدعو كوتارو ياماوكا، الذي أسلم وجعل اسمه عمر ياماوكا، فوافق الشيخ عبد الرشيد إبراهيم على ذلك، ودفع اليابانيون كافة النفقات ثم عاد إلى اليابان عام 1939م، إماما لمسجد طوكيو[17]، وبقي على هذه الحال، حتى وافاه الأجل يوم 31 غشت 1944م، عن عمر يناهز قرابة مائة سنة، ودفن في اليابان، في المقبرة الإسلامية بطوكيو.

إلى جانب ما سبق الإشارة إليه، اقتحم عبد الرشيد إبراهيم ميدان التأليف من بابه الواسع، فهو صاحب إنتاج غزير ومتنوع، وما يميز مؤلفاته المتعددة، هو دقة التصنيف، وسعة الاطلاع، وتفتح في النظر، وحصافة في الرأي. فهو ينتمي إلى صنف أولئك العلماء، الذين ساروا في طريق العلم، وركزوا قواعده، وتعمقوا في دراسته، ولا غاية لهم سوى مرضاة الله، وتركوا للزمن الحكم لهم أو عليهم. ونلمس كل ذلك بجلاء في العناوين التالية: **العالم الإسلامي**، **وانتشار الإسلام في اليابان** (**تركستان**، **سيبيريا**، **منغوليا**، **منشوريا**، **اليابان**، **كوريا**، **الصين**، **سنغافورة**، **جزر الهند**، **بلاد الهند**، **الجزيرة العربية**، **دار الخلافة**)، كتاب يقع في مجلدين، طبع في إستانبول ما بين سنتي 1910م و1911م؛ المرآة، طبع في كازان سنة 1909م؛ سيرتي الذاتية أو ما قدر لي، طبع في سانت بطرسبورغ ما بين سنتي 1911م و1912م؛ محاكمة الوجدان أو ميزان الإنصاف، طبع في إستانبول ما بين سنتي 1910م و1911م، الدين الفطري، طبع في إستانبول ما بين سنتي 1921م و1922م؛ كوكب الزهرة، طبع في سانت بطرسبورغ سنة 1907م؛ آسيا في محنة، طبع في إستانبول ما بين سنتي 1910م و1911م.

وفي السياق نفسه، كان الشيخ عبد الرشيد إبراهيم غزير الإنتاج، من حيث الكتابة الصحفية، فهو لم يتوقف بالرغم من رحلاته وتنقلاته عن ملء أعمدتها، وكانت الصحف التي يكتب فيها متنوعة، فمن الصحف الصادرة في روسيا، والتي كان يشرف على إحداها ابنه البكر، إلى الصحافة اليابانية والتي كانت تنشر خطبه التي يلقيها في مختلف المحافل، إلى الصحافة الصادرة في إستانبول، وعلى رأسها **الصراط المستقيم**، والتي يترجم توجهها قناعاته السياسية، ثم مجلة **معلومات**، والتي تعد من بين أُمّهات الصُّحف الإسلامية في تركيا العثمانية وقتذاك، وبالضبط في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين[18].

أما عن قيمة الشيخ عبد الرشيد إبراهيم العلمية، فسنختصرها في نص بليغ مُعبِّر، صاغته صاحبته بأسلوب أدبي جميل، وببلاغة تعبيرية، ذات حُسن معاني، إنها مترجمة رحلته موضوع هذا العرض، هويدا محمد فهمي، حيث تقول في هذا الصدد: "**إنه داعية رحالة لا يملك من حطام الدنيا شيئا (...) إنه رجل مثقف صاحب فكر ورأي قلبه عامر بالإيمان والتقوى**"[19]. "**وروح [عبد الرشيد إبراهيم] تشع من خلال سطوره، فهو رجل بسيط إلا أنه مثقف دقيق التعبير بليغ العبارة، يتمتع بأسلوب جذاب. ويتحلى برؤية للأمور تمتزج بالواقعية دون جموح أو جري وراء خيالات فضفاضة تأخذ الإنسان بعيدا عن الحقيقة والواقع**"[20]. ويُضاف إلى هذه الشهادة، ما قاله السلطان عبد الحميد الثاني، آخر السلاطين العثمانيين في حقه: "**إنه عالم قازاني يرى نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية في اليابان واجبا مقدسا، وهو يدعم فكرة الجامعة الإسلامية في اليابان**"[21]. ومن الشهادات الأخرى، في حقه أيضا، شهادة محمد رجب البيومي صاحب كتاب (النهضة)، حيث يقول: "**هذا الرجل معجزة حقا، ولولا أنه رُئِيَ بالعين وسمع بالأذن، وألف بالقلم وخطب باللسان لقال القائلون: إن وجوده يستحيل! ولنا أن نضمّ إلى أسطورة جمال الدين أسطورة أخرى شابها الأساطير في غرائب ما أبدعت وعجائب ما أثمرت! تلك هي أسطورة الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدؤوب: عبد الرشيد إبراهيم، فقد ناهز المائة من عمره المبارك مجاهدا في سبيل الله حتى التحق بالرفيق الأعلى في 31 أغسطس سنة 1944م**[22](...) فقد آثر [**عبد الرشيد إبراهيم**] **أن يكون جنديا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويَعِظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويترك للأيام أن تنضج بذوره الطيبة دون تعجّل، وقد أحسن الله عاقبته فعُمّر في الإسلام حتى شاهد نوره يمتد على يديه إلى مطارح نائية كانت تَغمَهُ في الظلمات**"[23].

والخلاصة التي ننتهي إليها بهذا الشأن، أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، حاز مكانة رفيعة بين أترابه، من علماء وأدباء العالم الإسلامي، وقيلت فيه مدائح كثيرة، وأثنوا عليه بما هو أهله، وأعجبوا بحدة ذكائه، وصلابة عوده، وتبحره في كل العلوم التي اشتغل بها، والتي تميزت بدقة التصنيف، وجودة الأسلوب، وجمال العبارة، وصرامة التحليل، فنال الصدارة والتقديم، وظفر بالحظوة والتقدير. بل أكثر من هذا، فقد أسهم إسهاما فعالا، بفعل نفوذه الروحي، إلى جانب خبراته الشخصية، وقابليته الفذة، في امتلاك ملكة التأثير، حيث جذبت إليه النفوس، وأخذت بمجامع القلوب، كما أنه ترك بصمات واضحة المعالم، في تطوير قنوات التواصل الحضاري، وتثمين الصلات الفكرية والروحية بين العالم الإسلامي والشرق الأقصى، ولا سيما في بلاد الشمس المشرقة (أرخبيل اليابان).

2.1. التعريف بكتاب الداعية الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الموسوم بـ (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين)

يُعتبر كتاب (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين) للشيخ عبد الرشيد إبراهيم، من بين أهم الشهادات التاريخية، التي وصفت بدقة متناهية أوضاع العالم الإسلامي بشكل عام، ومسلمي آسيا الوسطى على وجه الخصوص، وتحديدا في مطلع القرن العشرين الميلادي، وما يزيد من أهمية الكتاب أكثر، كونه يؤرخ لجزء من القارة الآسيوية، ذات الغالبية المسلمة، التي لا نعلم عنها سوى الاسم فقط، ونعرف معلومات قليلة جدا، ومغلوطة في نفس الوقت، عن لغات وعادات وتقاليد الأقوام، التي تسكن هذه الأقاليم الآسيوية المنسية، والتي لم تنل بعد كل ما تستحقه في البيبليوغرافيا العربية من اهتمام وعناية. وهكذا تجوّل الشيخ عبد الرشيد إبراهيم سنوات طويلة في كل أنحاء آسيا، ووقف على ماضي الأقوام التي تسكنها، ودقق في أحوالهم، فإذا وجدهم في سعادة غامرة، بحث في مصدرها، وإذا وجدهم في الفقر والبؤس يرزحون، بحث في مبعث ذلك. ورغم أنه ترك أولاده وعائلته ووطنه، وهو يحس بحنين دافق، إلا أنه لم يترك فرصة لهذه الأحاسيس الفياضة، كي تشده إلى الوراء، وهو يتجوّل في رحلاته من مكان إلى آخر، ورغم أن كثيرا من مناظر العالم الإسلامي ومظاهره، التي صوّرها ترزح في المذلة والمهانة والفقر، تبكي العيون وتدميها، إلا أنه كان يجفف دموعه، من آن لآخر، لكي يرى ما حوله رؤية جيدة وواضحة. نعم، "**إن التوقف أمام هذه الأحداث المؤلمة، لكتلة بشرية كبيرة دون حراك، أمر لا فائدة من ورائه**"[24]، على حد تعبير الشاعر والكاتب العثماني المعروف محمد عاكف آرصوي.

وحتى نستشف بجلاء، أهمية كتاب الشيخ عبد الرشيد إبراهيم وقيمته العلمية الكبيرة، يقول الشاعر محمد عاكف آرصوي، السالف الذكر: "**وفي الحقيقة فإن كتاب السياحة الذي كتبه عبد الرشيد إبراهيم لا يثلج صدورنا، لأنه يعرض كثيرا من الحقائق العارية عن كل زيف والمريرة في آن واحد. ويركز على الأمراض الاجتماعية للشرق وعلى الأحوال المتردية فيه ويعرض للتخلف والجهل والأوضاع الدينية البائسة، ولكن مع طرح أعراض جميع المرض وتطور مراحله كي يمكن أخذ الأسباب بعين الاعتبار لإمكانية التداوي. كتب عبد الرشيد سياحته بلغة بسيطة مع توضيح بعض الأحداث عن طريق إيراد الصور، ولا أتذكر أنني قرأت كتابا بهذا القدر من الصدق والفائدة والتأثير البالغ منذ زمن بعيد. وكم يكون المثل العربي الذي يقول إن الكلام الذي يخرج من القلب يصل إلى القلب والذي يخرج من اللسان لا يجاوز الآذان، صادقا تماما مع هذا الموقف. وإذا نظرنا إلى كلام عبد الرشيد إبراهيم يخلو من التصنع والتكلف، لأنه كلام طبيعي وصادق يحدث تأثيره الفوري**"[25]. لذلك ليس غريبا، إذا لاحظنا أن الباحثة هويدا محمد فهمي، تقول عن قيمة وأهمية كتاب الشيخ عبد الرشيد إبراهيم: "**إنه عمل علمي دقيق يبتعد عن الموضوعات الإنشائية والسطحية، ويجنح إلى تصوير الواقع بكل آلامه وآماله دون زيف أو تزيد. فهو عمل ملئ بالمعلومات والمواقف والآراء واللقاءات والمقابلات والزيارات والمفاجآت التي تتناول الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية**"[26].

وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات، والمشاق، والعقبات، الطبيعية والسوسيو ثقافية، الكثيرة والمتنوعة، التي اعترضت الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، في أثناء تحرياته الميدانية في آسيا الوسطى، والمناطق القريبة منها، إلا أنه تمكن من تحرير عدد كبير من البيانات والمعطيات الدقيقة والمهمة حول المنطقة المذكورة؛ وهي معلومات، حاولت استقراء المجال والإنسان، وتقديم مادة معرفية متنوعة، تهم الجوانب: التاريخية، والثقافية، والفكرية، والجغرافية، والدينية، والاقتصادية، والتجارية، والسيكولوجية؛ بغية تقريب صورة وواقع الإسلام والمسلمين في هذه الربوع الآسيوية المنسية والمجهولة، والتي ظلت مطمورة في غياهب الإهمال والتهميش في كتاباتنا العربية لعقود طويلة.

2. أوضاع حواضر تركستان من خلال كتاب الداعية الشيخ عبد الرشيد إبراهيم

يحفل كتاب (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين)، للشيخ عبد الرشيد إبراهيم ببيانات وإفادات، كثيفة ودقيقة، عن أوضاع بلدان آسيا الوسطى عامة، وتركستان على وجه التخصيص، ذات الغالبية المسلمة، وتحديدا في مطلع القرن العشرين، وما يزيد من أهمية هذه المعلومات والمعطيات، كونها تحريات ميدانية جد دقيقة، وفي عين المكان، تستند بالأساس على المشاهدة المباشرة، والوصف الدقيق، لأحوال تلك الأقطار الآسيوية المسلمة، التي زارها الشيخ الرحالة وخبر شؤونها عن قرب، في هذا الصدد يقول الشيخ عبد الرشيد إبراهيم: "**اسألوني عن العالم الإسلامي أجبكم حيث لم أترك مكانا فيه لم أتجول به أو أزره من الشرق الأقصى وحتى المغرب الأقصى**"[27]، الشيء الذي جعل من كتاب رحلة الشيخ السيبيري عبد الرشيد إبراهيم، عبارة عن تسجيلات وثائقية، تُصوِّر بدقة متناهية، ما يثير الملاحظة حقا، بحيث قلّما نجد لها نظيرا في باقي مصادر تاريخ هذه البلدان، سواء المحلية منها أو الأجنبية، ويكفي أن يلقي المرء إطلالة سريعة على مضامين الكتاب، ليتأكد عن كثب على جودة المواضيع، التي عالجها صاحب التأليف، بأرقى أساليب التعبير. وهكذا أفرز لنا هذا الكتاب، منتوجا علميا، بالمعنى والكلمة، جدير بالاهتمام والقراءة.

1.2. مدينة طشقند

يُخبرنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة طشقند، وبعد أن أضحت حاضرة إسلامية، لما يقرب من أربعين سنة، أصبحت في سنة 1865م، ولاية روسية، ومركز إداري لولايات كل: تركستان، وفرغانة، وسيرداريا، المعروفة أيضا باسم (نهر سيحون). ويذكر بأن حاضرة طشقند رغم أنها تبدو من الخارج مدينة واحدة، إلا أن بها نوعين من التقسيم الإداري: أحدهما يسمى (الحي الروسي)، والآخر يسمى (الحي الإسلامي). ويُضيف بأن الحي الروسي يعيش فيه الروس، وإذا وُجد فيه مسلمون، فهم أقلية، ورغم ذلك فأغلبهم ليسوا من

السكان الأصليين، بل من قومية التتار، جاؤوا من داخل روسيا. ويُبيّن الشيخ بأن هؤلاء التتار، يُطلق عليهم المواطنون الروس اسم "نوكاي"، كما يُطلق كل التركستانيين لقب "نوكاي" أيضا على تتار روسيا، ويُشير بأن الروس حينما احتلوا حاضرة طشقند، أقاموا في الجزء الخاص بهم، أبنية مرتبة للغاية، ومتاجر، وشوارع جميلة، وأرصفة منظمة، وأضواء الكهرباء، وغيرها من التجهيزات الأخرى، على النظام الأوروبي الحديث. في المقابل، يُحدثنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن (طشقند الإسلامية) هي عكس (طشقند الروسية)، حيث لا يزال الوضع فيها كما كان منذ 500 عام، حيث يتعذر التجول داخل المدينة، من منزل إلى آخر، في فصل الربيع، وحتى في فصل الخريف، فيها وحل كثير لدرجة يستحيل على الإنسان معها وصفه، حتى أن الحيوانات لا تستطيع أن تجتاز بعض الطرقات. في الوقت ذاته، يذكر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة طشقند إدارتها واحدة، وإيرادها واحد، والغالبية العظمى من أهاليها مسلمون، تؤخذ الإيرادات من منازل المسلمين، أما المصروفات فتنفق على شوارع المسيحيين، ليس هذا في مدينة طشقند وحدها، بل أن هذا الوضع يشمل تركستان بأكملها. وتجدر الإشارة هنا، أن الروس كانوا يديرون شؤون هذه الحاضرة بقبضة من حديد. أكثر من هذا، يذكر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، بأن شعب تركستان بما فيه سكان مدينة طشقند، ليسوا أصحاب حق في المواطنة الروسية، كما أن القوانين والقواعد المعمول بها هناك آنذاك، طبقت رغم أنف السكان الأصليين[28].

علاوة على هذه البيانات النادرة، يُحدثنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة طشقند في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كانت مركزا تجاريا كبيرا في آسيا الوسطى بشكل عام، وتركستان على وجه الخصوص، يأتي إليها التجار من مختلف المراكز الأوروبية، بقصد البيع والشراء، كما كان يوجد فيها آنذاك أصحاب رؤوس أموال عديدين من المسلمين وغيرهم، وإذا كان أغلبية المشتغلين بالتجارة من بين اليهود المحليين، فإنه يوجد تجار كبار محترمون من بين المسلمين أيضا، ويُضيف الشيخ بأن أهم تجارة في عموم المدينة المذكورة، هي تجارة القطن. في نفس الإطار، يُخبرنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أنه في السنة التي زار فيها مدينة طشقند، وبالضبط في سنة 1907م، كانت توجد فيها مجموعة من المصانع الكبيرة لحلج القطن، وأغلبية هذه المصانع تتركز الأعمال فيها في يد المسلمين. في المقابل، يرى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن المحير والمحزن حقا في مدينة طشقند، هو أنه لا توجد مدرسة واحدة من أجل مسلمي تركستان، في هذا الصدد، يقول: "**مضى على احتلال تركستان** 45 **عاما، إلا أنه لا توجد للمسلمين مدرسة عالية واحدة، في حين أكمل الروس مدارسهم العالية. وليس من المأمول إنشاءها للمسلمين في وقت قريب**"[29]. كما أنه يُخبرنا بأنه يندر وجود أحد يعرف اللغة الروسية بين المسلمين المحليين، ويُشير أيضا إلى أن خوف المسلمين من المبشرين الروس، جعلهم لا يستطيعون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الروسية آنذاك[30]، وبهذا "**الشكل وقع كل مسلمي تركستان في بحار الجهالة، وابتلوا بفساد الأخلاق والمسكرات، وقطعوا فيهما شوطا كبيرا بسرعة فائقة. وكلما رأى الإنسان هذه البلاد، فإنه يقول عادة إن أمة تركستان أمة محكوم عليها بالموت**"[31]. ومن جهة أخرى، يُخبرنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن شعب طشقند يتميز "**بحب الضيوف وعلو الهمة والألفة، وهو صاحب استعداد فطري فوق العادة، وصاحب ذكاء متقد، ويوجد من بينهم رغم قلة العدد، رجال يُجيدون التحدث بالروسية والنمساوية بطلاقة، رغم أنهم لم يصيبوا أي حظ من التعليم قط**"[32].

وبموازاة مع ما تقدم، يُسجل الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن شعب طشقند الذي وصل عدد سكانه في مطلع القرن العشرين إلى 200 ألف نسمة[33]، هو في الأصل، إما من القومية الأوزبكية، أو من أصول تركية مختلفة، ولغته هي اللغة التركية الأوزبكية الخالصة، ومع ذلك يوجد بينهم كثير من المتحدثين باللغة الفارسية أيضا. ومن جهة أخرى، يذكر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، بأنه في مدينة طشقند توجد آثار إسلامية عتيقة، مثل: المدارس، والمساجد، ويُضيف بأن الحكومة الروسية وقتذاك، أي في أوائل القرن العشرين، زمن حكم الإمبراطور نيكولا الثاني "**افتتحت مكتبة بسيطة، ومتحف صغير أيضا، ما عدى ذلك لا يوجد هناك شيء يستحق الذكر**"[34]. بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، يُحدّثنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن شعب طشقند كانوا ميالين أكثر إلى التجارة، حيث خرجوا بالتجارة إلى كل النواحي والأقطار، سواء الآسيوية منها أو الأوروبية. وهكذا، طرقوا أبواب التجارة في موسكو، وفي سانت بطرسبورغ، وغيرها من المراكز التجارية الأوروبية الأخرى.

2.2. مدينة بخارى

لا يُخفي الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، إعجابه بمدينة بخارى، أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، والتي زارها في أوائل سنة 1908م، حيث وصفها في غير موضع من كتابه، بـ "المدينة الشريفة"، و"المدينة المقدسة"، و"منبع العلم والمعرفة"، بل أكثر من هذا، يُخبرنا بأن هذه المدينة تستحق التقديس في زمانها، وإن يراجع الإنسان تاريخ أشهر رجال الإسلام، فإنه يقرأ أسامي كثير من الشخصيات الكبيرة، مثل: إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عمر البيضاوي، والشيخ الرئيس ابن سينا الفيلسوف الطبيب، وعلماء الظاهر والباطن الآخرين. لقد اشتهر عنهم اسم "علماء ما وراء النهر"، وهكذا يُبيّن الشيخ المذكور، أن مدينة بخارى تستحق بحق في زمانها لقب "بخارى الشريفة"، و"مقر الحكم الإسلامي"، و"منبع علماء الدين"، وإلى غير ذلك، من الأوصاف العظيمة والرنانة. هكذا كانت مدينة بخارى أيام الحكم الإسلامي، وحتى في العصر السامانى[35]، لكن كيف أضحى حال هذه المدينة في أوائل القرن العشرين؟ في هذا الصدد يُجيبنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، بأن مدينة بخارى في مطلع القرن العشرين، أصبحت إمارة إسلامية كبيرة، يقترب تعداد سكانها من مليوني

نسمة، أراضيها خصبة جدا، وإيراداتها كثيرة، توجد فيها جميع أنواع المزروعات، كما تجود بالأغنام خاصة، حيث تشكل أهمية كبيرة بالنسبة للأهالي، حيث يكسبون كثيرا من تجارة الجلود، وتبلغ تجارة الجلود المعروفة في اللسان المحلي بـ "قراقول"، حوالي خمسة ملايين روبل سنويا، كما كانوا يكسبون من تجارة القطن أيضا الملايين من الروبلات[36].

إلى جانب ما سلف ذكره، يُشير الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن سكان مدينة بخارى هم من قومية التاجيك، يتحدثون اللغة الفارسية، وحتى التركية، ويذكر أن سكان هذه المدينة يتصفون بالاهتمام بالضيوف والتواضع، كما أن البعض منهم يتصف بفساد الأخلاق والعنف، إلا أن أهم ميزة يتميز بها هؤلاء القوم، هي أنهم أهل كسب وتجارة، فأينما يذهبون يمارسون الكسب والتجارة، حيث لن تجد واحدا منهم في كل أرجاء المدينة يمارس التسول، ولا يمكن رؤية سائل واحد من بخارى[37]. ومن جهة أخرى، يُحدّثنا الشيخ المذكور، أن مدينة بخارى تتميز بكثرة الآثار القديمة، وخاصة المساجد والمدارس. ومن ذلك أيضا، المدافع والأسلحة القديمة، الباقية من عهد تيمور، والمعروف باسم تيمور لنك، وكل هذه الآثار تبعث وفق الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الدهشة، وفضلا عن ذلك، يوجد في مدينة بخارى "**مخزن للكتب القديمة، وإذا كانت هناك كتب كثيرة، فهي مكتوبة بخط اليد، ومن ذلك ما هو مكتوب منذ ثمانمائة عام أو ألف سنة. وتوجد كثير من المزاول الشمسية، فضلا عن المخطوطات الرفيعة القيمة، التي توجد ضمن تلك الكتب**"[38].

ومما تجدر الإشارة إليه، في ختام هذه الجولة بمدينة بخارى، أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، لم يفته التأكيد أن حكومة بخارى وقتذاك في مطلع القرن العشرين، لا يوجد هناك أمل يبشر بالخير، سواء في الحاضر أو في المستقبل، سواء من الناحية الدينية أو الإنسانية، حيث يوضح الشيخ المذكور سبب ذلك، وهو "**وجود حكومة مستبدة ومنحوسة، لا تنفع في أي عمل سوى محو الاستعداد الفطري للأمة البخارية، خدمة لهوى عبد الأحد خان، خادم الروس، الذي يحمل لقب أمير**"[39]، وهو الذي نهب وفق الشيخ المذكور، دائما، أهالي بخارى مباشرة، "**وجاء بحيلة يتستر وراءها لنقل الأموال التي جمعها إلى مدينة سانت بطرسبورغ، أكثر من هذا يُبيّن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن عبد الأحد خان حاكم مدينة بخارى آنذاك، قد أعان الروس في حربهم مع اليابانيين في سنة 1905م، عن طريق تقديم دعم مادي كبير إليهم، وصل على حد بعض الروايات، إلى أكثر من خمسة ملايين روبل**"[40].

3.2. مدينة سمرقند (Samarkand)

بدأ الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، حديثه عن مدينة سمرقند، التي زارها في بداية شهر فبراير 1908م، بقوله إن هذه المدينة العريقة، كانت مركزا لآسيا الوسطى، ولفترات تاريخية طويلة، يقصدها الناس من كل حدب وصوب، وكان يُطلق عليها "رونق وجه الأرض"، وكانت عاصمة لآسيا الوسطى، لفترات عديدة، بيد أنه يُبيّن أن حال هذه المدينة في أثناء زيارته لها، في التاريخ المذكور أعلاه، أضحت عبارة عن "**أنقاض وخرابات للمآثر الإسلامية القديمة**"[41]. ويُشير إلى أن تعداد سكان مدينة سمرقند، قد وصل في نفس التاريخ المذكور سابقا، إلى سبعين ألف نسمة تقريبا، سكانها الأصليون من قومية الأوزبك، ولفترة طويلة كانت مدينة سمرقند مقرا لهجرة جميع الإيرانيين. ولهذا السبب، فإن عموم أهالي مدينة سمرقند، لا يتحدثون التركية فقط، بل الفارسية أيضا، حتى أن فئة العوام الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، يتكلمون باللغتين؛ وذلك لأن أهالي مدينة سمرقند، عبارة عن قوم مختلط من عناصر إيرانية وأوزبكية[42].

إضافة إلى هذا وذاك، يُشير الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة سمرقند قد ازدانت وشرفت بمعاهد العلم الكبيرة، والمراصد الضخمة، إلا أنه يُبيّن أن عظمة هذه المعاهد والمدارس، أصبحت أنقاضا ليس إلا، في أثناء تجواله فيها، مطلع فبراير سنة 1908م[43]، ويُضيف بأنه حتى الجوامع الضخمة، والتي كانت مزدانة بالفنون النفيسة للفسيفساء من الداخل والخارج، والتي حيرت الألباب في فن المعمار، ولا سيما المنارتان المتميزتان بالارتفاع والضخامة، الواقعتان بجوار مدرسة ديلاكار، قد تعرضتا للهدم بكاملها، في "**ظل حضارة القرن العشرين**"[44]، كما سرقت الحجارة المنحوتة بطريقة فنية واحدا فواحدا من قِبل الأوروبيين، الذين يأتون لزيارة مدينة سمرقند على الدوام. ويُعلق الشيخ عبد الرشيد إبراهيم على هذا بسخرية: "**ما يدعو للحيرة أيضا، وهو أن المسلمين المتوحشين**[45] **هم الذين أقاموا هذه المباني، وقام الأوروبيون المتحضرون بهدمها ولا زالوا يهدمونها**"[46]. بيد أنه في المقابل، يُبيّن أن السبب الأول والأخير، الذي جعل هذه المباني الأثرية، تتعرض للدمار والخراب والنهب، من طرف الأوروبيين وغيرهم، يكمن في عدم اهتمام سكانها المسلمين بالمحافظة على هذه الآثار العتيقة، الشاهدة على عراقة حضارة هذه الأقطار التركستانية المسلمة، حيث يقول في هذا الصدد: "**لا زال المسلمون إلى يومنا هذا [أي إلى غاية سنة 1908م] لا يهتمون بالمحافظة على آثارهم النفيسة العتيقة قدر ذرة، ولن يستطيعوا أن يهتموا [بها] في الوقت الحالي. ويقولون عن تيمورلنك خاصة أنه سفاك دماء وعدو للمدنية ولا أدري بماذا وصموا إنسانيته. علما بأن الإنسان كلما رأى قبره أو مكتبته العظيمة، يبكي دما**"[47].

وكيفما كان الحال، يُحدثنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن كل الأشياء الثمينة التي تستحق الاستحسان في مدينة سمرقند من آثار عمرانية قديمة، وما سوى ذلك من التحف النادرة، قد نقلها الروس إلى مدينة سانت بطرسبورغ، الواقعة في شمال غرب روسيا، ساعة استيلائهم على مدينة سمرقند، في 24 شتنبر 1869م، وحتى الكتب الإسلامية القديمة الموجودة في المكتبة القيصرية في سانت بطرسبورغ، نُقلت كلها من مدينة سمرقند، وحتى المصحف الذي يُنسب إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، والمحفوظ في المكتبة القيصرية، أُخذ من مدينة سمرقند، إضافة إلى مخطوطات أخرى نادرة ونفيسة[48].

ومما تجدر الإشارة إليه، في ختام هذه الجولة السريعة، في مدينة سمرقند العريقة، هو أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، لا يخفي إعجابه ببعض الشخصيات في مدينة سمرقند، والذين وصفهم بـ "الوجهاء"، و"الكرام"، و"أصحاب همم"، حيث يذكر أن تلك الشخصيات جميعها، تستحق أن تُكتب أسماؤهم بالذهب على لوحات مقدسة، عرفانا بخدماتهم الجليلة، في سبيل شعب تركستان بصفة عامة، وشعب سمرقند على وجه الخصوص، بيد أن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، لم يذكر أسماءهم، ولا حتى ألقابهم، ويرجع السبب الرئيسي في ذلك، وفقه، إلى خوفه من أن يتعرضوا للمضايقات أو للاعتقالات، من قِبل البوليس الروسي، ومن الأعمال المتنوعة والعديدة، التي قامت بها تلك الشخصيات، إنشائهم مدارس ابتدائية وإعدادية كثيرة، ومنظمة للغاية، وكل واحدة منها تعتبر نموذجا لتركستان بعامة، ومنها مدرسة أسسها عصرئذ عبد القادر أفندي، وكان يرعاها المفتي محمود خواجه، وكلاهما من قومية الأوزبك[49].

4.2. مدينة خوقند

يُحدثنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة خوقند الواقعة في ولاية فرغانة، والتي وصل عدد سكانها في مطلع القرن العشرين إلى 95.000 نسمة، تنقسم إلى قسمين متمايزين، قسم خاص بالجالية الروسية، وقسم ثاني خاص بالمسلمين المحليين، ويذكر أنه بالرغم من أن السكان الروس لا يتجاوزون 3000 نسمة من مجموع سكان مدينة خوقند، إلا أن منطقتهم منظمة تنظيما متميزا، عكس المنطقة التي يسكن فيها المسلمون، هذه الأخيرة كما يُخبرنا الشيخ المذكور، هي منطقة غير منظمة، لدرجة لا يمكن للمرء المرور فيها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، يُبيّن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن مدينة خوقند تأتي في المرتبة الثانية من الناحية العلمية، بعد مدينة بخارى في عموم تركستان، حيث توجد فيها مدارس كثيرة ضخمة، فضلا عن هذا، تتوفر المدينة المذكورة على مجموعة من الآثار الإسلامية النفيسة، أبرزها القصر المسمى بـ (قصر خدايار خان)، إلا أن هذا الأخير، وبعد استيلاء الجيش الروسي على المدينة، تحول إلى معسكر لعساكر الروس[50].

في هذا الجانب، يقول الشيخ عبد الرشيد إبراهيم: "**وقبل ذلك بـ 50.40 سنة كان قصرا للإسلام معززا مكرما يزدان من الداخل والخارج بالآيات البينات. واليوم يصيح بلسان الحال، قائلا: أصبحت سخيفا. أصبحت محل فسق وفجور، وبينما كان الذكر والتسبيح وتلاوة القرآن تتردد من داخلي منذ 40 عاما، أصبحت أنواع الفجور تمارس اليوم بدلا منها والألفاظ القبيحة تقال. لقد أصبحت مسكنا للسكارى والسفهاء الذين يكممون الأفواه ويلعنون الآباء. وتمارس كل أنواع هذه السفاهات أمام أعين الخوقنديين جميعا. واذا بكى الخوقنديون اليوم دما، فهو قليل. ولكن الإنسان يألف الأسر بسرعة ويعتاد عليه**"[51].

ويُضيف بأنه رغم "**وجود رجال علم ورجال فضل على أعلى مستوى، وهناك أدباء وشعراء. ولكن لا توجد حمية أو غيرة ولا توجد همة ولا قومية ولا وطنية. ولهذا السبب أصبح قصر الحكم الخاص بسلطان الإسلام معسكرا لجنود الروس**"[52].

5.2. ولاية يدي صو

يُشير الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، في البداية، إلى أن أكثر سكان ولاية يدي صو، هم من قومية القازاق الرحل، وجزء منهم من قومية القيرغيز أيضا. ويذكر أن هذه الولاية الواسعة، يقال عن إحدى نواحيها (مشتى قيشلاو)، ويقال عن الناحية الأخرى (مصيف يازلاو)، كما يُخبرنا أن سكان هذه الولاية، سواء الذين ينتمون إلى قومية القازاق، أو الذين ينتمون إلى قومية القيرغيز، كانت معيشتهم تنصب على تربية الماشية، وكان (الفقير) عندهم هو كل شخص يملك على الأقل من 15 إلى 20 من الخيل، ومن 40 إلى 50 من الضأن، أما (الغني) فكان لديه من 1000 إلى 2000، وحتى 5000 فرس، ومن 10.000 إلى 20.000 من الضأن، وكان يقال للذين يمتلكون من 200 إلى 300 فرس (ميسور الحال) في ذلك الوقت. ويُحدثنا أيضا أنه إذا كان هناك فرق بين أسماء القازاق والقيرغيز، فإنه لا يوجد فرق في أصول معيشتهم، والقازاق أكثر عددا من القيرغيز، ويُخبرنا أيضا بأن القازاق منتشرون بكثرة في بلاد الصين وتركستان، ويتراوح مجموع عدد القازاق بين 9.000.000 و10.000.000 نسمة في مطلع القرن العشرين، ويُضيف الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن لشعب القازاق خصلة تدعو للإعجاب، وهي أنهم جميعا يتحدثون لغة واحدة ولهجة واحدة، ولا يوجد فرق قط من حيث المعيشة والعادات في أطوار وأخلاق القازاق، الذين يقطنون على سواحل بحر البلطيق (بحر الخرز)، والقازاق الذين يسكنون فيما وراء منطقة ألطاي، الواقعة ما بين سيبيريا وتايكا، لدرجة أنهم جميعا يتصفون بالسمنة والبدانة[53].

وتجدر الإشارة، إلى أن مدينة آلما آتا، هي عاصمة ولاية يدي صو، ويذكر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن الروس يطلقون عليها (ويرناي)، ويُضيف بأن أهاليها كلهم مسلمون، ومهما كان عدد المسيحيين الموجودين فيها، فإنهم أقلية، وأكثرهم عبارة عن رجال دولة وموظفين، والمسلمون هنا عبارة عن قبائل تجمعت من: التونكاني، والتارانجاه، والنوكاي، والقازاق، والقيرغيز. وهم جميعا عبارة عن عنصر تركي، ولهذا السبب أطلق علماء الجغرافيا على المناطق التي يسكنونها اسم (تركستان الصينية)، ويُخبرنا الشيخ عبد الرشيد إبراهيم أنه رغم أن مدينة آلما آتا تعتبر من أملاك الإسلام كلها، إلا أن العنصر السلافي، الذي هاجر من داخل روسيا إلى عموم ولاية يدي صو، تمّ إجبارهم من قِبل الحكومة الروسية آنذاك بالاستيطان فيها. علاوة على ما تقدم، يُبيّن الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، أن تسمية (آلما آتا) بولاية (يدي صو) راجع إلى أن سبعة أنهر تمر من داخل هذه الولاية[54]، في المقابل هذه البيانات، يذكر الشيخ أن الحكومة الروسية كانت تعامل أهالي هذه المناطق باحتقار كبير، لدرجة لا يستطيع أن يتصورها الإنسان، في هذا الجانب يقول: "**فقد علمت من مصادر موثوق بها أنه إذا أقدم أحد الموظفين الروس أو المهاجرين الروس على قتل رجل من الأهالي المحليين، فإنه لا يجازى على الإطلاق. حتى أن أحد مديري**

الشرطة أطلق الرصاص على شخص محترم يدعى محيي الدين قاري في موقع قريب من بشباك أثناء قيامه بقراءة القرآن في المكان الذي يجلس فيه. وقد جاء القاتل إلى البلدة بنفسه، وأخبر ورثة محيي الدين قاري، قائلا: لقد أطلقت الرصاص على أخيكم فاذهبوا إلى المكان الفلاني لتدفنوه بأيديكم"[55].

خاتمة

يبدو من حصاد ما سلف، أن كتاب (العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين)، للشيخ عبد الرشيد إبراهيم، نفيس ونادر ومثير، نظرا لما يزخر به من معطيات ومعلومات وبيانات، قيّمة، في غاية من الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلت بالكيفية المثلى والصحيحة، أن تساعدنا لا محالة في إنارة الجوانب المظلمة من تاريخ هذه المناطق الآسيوية المسلمة المنسية. وعليه، فالعودة إلى هذه النوعية من الكتابات التاريخية، أضحت اليوم ضرورة ملحة، يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقاربة مواضيع وقضايا جديدة، تهم أساسا التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني. صحيح أن كتاب الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، لن يمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وواضحة، حول تاريخ تركستان وحضارتها، بيد أنه على الأقل بإمكانه أن يستكمل لنا بعض التصورات، ويسد بعض الفجوات، التي تعاني منها المدونات التاريخية التركستانية، وحتى العربية، والغربية.

تضارب المصالح

يعلن المؤلف أنه ليس لديهم تضارب في المصالح.

الهوامش

1- شاكر، محمود، تركستان، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1970، ص8.

2- فلاديميروفيتش، فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، 1981، ص59.

3- شاكر، محمود، تركستان، م.س.، ص4.

4- العبودي، محمد بن ناصر، في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، 1412ه/1991م، صص-239 240. وشاكر، محمود، تركستان، م.س.، ص9.

5- إبراهيم، عبد الرشيد، العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين: مسلمو تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا، تقديم وترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص7.

- حرب، محمد، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1990، ص191.

- بنحادة، عبد الرحيم، بحوث ودراسات في التاريخ العثماني، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2017، صص92-91.

- البيومي، محمد رجب، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، (جزءان)، منشورات دار القلم والدار الشامية، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، 1995، 1/41-94.

6- إبراهيم، عبد الرشيد، العالم الإسلامي، م.س.، ص8.

7- إبراهيم، سمير عبد الحميد، الإسلام والأديان في اليابان، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى، 2001، ص355.

8- بنحادة، عبد الرحيم، بحوث ودراسات، م.س.، صص91-92.

9- حرب، محمد، السلطان عبد الحميد، م.س.، ص194.

10- بنحادة، عبد الرحيم، بحوث ودراسات، م.س.، ص92.

11- إبراهيم، عبد الرشيد، العالم الإسلامي، م.س.، ص32.

12- المصدر نفسه، ص33.

13- المصدر نفسه، ص33 وص.296.

14- السامرائي، حذيفة عبود مهدي، الدعوة الإسلامية في اليابان (ماضيها، حاضرها، ومستقبلها)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص105.

15- بنحادة، عبد الرحيم، بحوث ودراسات، م.س.، ص94.

16- السامرائي، حذيفة عبود مهدي، الدعوة الإسلامية، م.س.، ص105.

17- إبراهيم، سمير عبد الحميد، الإسلام والأديان، م.س.، صص359-358.

18- بنحادة، عبد الرحيم، بحوث ودراسات، م.س.، ص95.

- البيومي، محمد رجب، النهضة الإسلامية، م.س.، ص48.

19- إبراهيم، عبد الرشيد، العالم الإسلامي، م.س.، ص5.

20- المصدر نفسه، ص30.

21- إبراهيم، سمير عبد الحميد، الإسلام والأديان، م.س.، ص356.

22- البيومي، محمد رجب، النهضة الإسلامية، م.س.، ص41.

23- المرجع نفسه، ص43.

24- انظر: إبراهيم، عبد الرشيد، العالم الإسلامي، م.س.، صص23-24.

25- المصدر نفسه، ص24.

26- المصدر نفسه، ص4.

27- المصدر نفسه، ص20.

28- المصدر نفسه، صص41-42-43.

29- المصدر نفسه، ص46.

30- المصدر نفسه، صص46-45-44.

31- المصدر نفسه، ص46.

32- المصدر نفسه ونفس الصفحة.

33- المصدر نفسه، ص43.

34- المصدر نفسه، ص47.

35- المصدر نفسه، ص51.

36- المصدر نفسه، صص53-52.

37- المصدر نفسه، ص59.

38- المصدر نفسه ونفس الصفحة.

39- المصدر نفسه، ص60.

40- المصدر نفسه، صص61-62.

41- المصدر نفسه، ص63.

42- المصدر نفسه ونفس الصفحة.

43- المصدر نفسه ونفس الصفحة.

44- المصدر نفسه، ص66.

45- يسخر الشيخ عبد الرشيد إبراهيم ويتهكم هنا، على وصف الأوروبيين للمسلمين بـ "الوحشية" وعدم "التحضر".

46- إبراهيم، عبد الرشيد، **العالم الإسلامي**، م.س.، ص66.

47- **المصدر نفسه ونفس الصفحة.**

48- **المصدر نفسه**، ص68.

49- **المصدر نفسه**، ص67.

50- **المصدر نفسه**، ص71.

51- **المصدر نفسه ونفس الصفحة.**

52- **المصدر نفسه ونفس الصفحة.**

53- **المصدر نفسه**، ص75.

54- **المصدر نفسه**، صص79-80.

55- **المصدر نفسه**، ص80.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، عبد الرشيد، **العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين (مسلمو تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا)**، تقديم وترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998.

- إبراهيم، سمير عبد الحميد، **الإسلام والأديان في اليابان**، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى، 2001.

- بارتولد، فاسيلي فلاديميروفيتش، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، 1981.

- بنحادة، عبد الرحيم، **بحوث ودراسات في التاريخ العثماني**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2017.

- البيومي، محمد رجب، **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، (جزءان)، منشورات دار القلم والدار الشامية، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، 1995، [الجزء المعتمد: الأول].

- حرب، محمد، **السلطان عبد الحميد الثاني: آخر السلاطين العثمانيين الكبار**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1990.

- السامرائي، حذيفة عبود مهدي، **الدعوة الإسلامية في اليابان (ماضيها، حاضرها، ومستقبلها)**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2013.

- شاكر، محمود، **تركستان**، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1970.

- العبودي، محمد بن ناصر، **في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر**، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، 1412هـ/1991م.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

المؤلف عادل بن محمد جاهل، (2020) أضواء على حواضر تركستان في آسيا الوسطى سنة 1908م من خلال مشاهدات الرحالة والداعية الإسلامي السيبيري الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات :131-140